محكم

ثنائية التقليد والحداثة في خطاب النخبة المغربية خلال القرن التاسع عشر:

الرحلات السفاريّة أنموذجاً

حسام هاب

باحث مغربي

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم الدراسات الدينية

لعبت الرحلة - بالإضافة إلى التجارة والحرب - دوراً مهمّاً في انتقال القيم الحضارية وانتشارها بين الأمم والشعوب منذ أقدم العصور، وانفتاح بعضها على نظم البعض الآخر، وتمازجها الحضاري والثقافي. ولذلك دأبت النخب الحاكمة على تشجيع مواطنيها الذين اشتهروا بالترحال في البلدان النائية على كتابة تقارير رحلاتهم، وفي بعض الأحيان تصبح تلك الكتابات إلزامية واجبة. ولم يقف أدب الرحلة خلال الأزمنة الحديثة عند حدّ التأثير في المجال السياسي والعسكري، بل تعداه إلى التأثير في المجال المعرفي: العلمي والفلسفي والفني[1]. وبهذا المعنى يمكن مقاربة أدب الرحلة من زوايا مختلفة: من زاوية كونه مصدراً للتاريخ، وأثراً أدبياً وفنياً، ووسيلة لانتشار القيم الحضارية بين المجتمعات، ووثيقة سوسيولوجية، ومصدراً لمعرفة الذهنيات والعقليات وتطورها عبر الزمان والمكان.

وبحكم أنّ المغرب هو أكثر البلدان العربية قرباً من أوربا، فإنه يكون من المنطقي أن تتوفر للمغرب مع أوربا في القرون السابقة ما لم يكن لغيره من بلدان العالم العربي الإسلامي، من حيث الصلات السياسية، والعلاقات التجارية، ومتى أضفنا إلى ذلك كون المغرب قد تمكن من الحفاظ على استقلاله السياسي زمناً طويلاً، فإنه يكون في وسعنا أن نقدّر طبيعة العلاقات التي استمرت بينه وبين مختلف البلدان الأوربية قبل أن يسقط في إسار الحماية في مطلع العقد الثاني من القرن العشرين، والتي اتسمت نوعا ما بسمة الندّية في التعامل بين المغرب وبين دول أوربا. وهكذا، فقد كان لكل هذه المعطيات الجغرافية والتاريخية انعكاسات مباشرة على أدب الرحلة، نجم عنه ظهور صنف غير مألوف في الرحلة العربية المعاصرة، هو صنف **"الرحلة السفاريّة"**[2]. ولم يظهر هذا الصنف من الرحلات لأول مرة في المغرب إلا في عهد الدولة السعدية، وأول رحلة بلغتنا من هذا النوع هي التي وضعها سفير المنصور الذهبي إلى الخليفة العثماني مراد الثالث سنة 997 هـ، وهو أبو الحسن علي بن محمد التامكروتي من رجال الدولة السعديّة. وكون هذه الرحلة هي أول ما بلغنا من هذا النوع عند المغاربة، فليس معناه أنه قبل التامكروتي لم تكن هناك علاقات ديبلوماسية بين المغرب والأمم الأجنبية، وأنه لم يؤلف أحد من سفراء الدول السابقة أو بعض كتّابهم رحلة عن مأمورياتهم، وإنما نعني أنّ الخزانة العربية المغربية لا تعرف مؤلفاً من هذا النوع، حتى ظهرت **"النفحة المسكية في السفارة التركية"**.[3]

والرحلة السفارية هي التي تكون الغاية من سفر صاحبها القيام بسفارة لدى دولة أجنبية، وتكون أحياناً من إنشاء السفير نفسه إن كان في الوقت ذاته من رجال الأدب والعلم، وأحياناً أخرى يقوم بتأليفها أحد الكتّاب الذين

[1]- عبد السلام الحيمر: **المغرب: الإسلام والحداثة**، سلسلة شرفات، العدد 15، الدار البيضاء، منشورات الزمن، 2005، ص 164

[2]- سعيد بنسعيد العلوي: **أوربا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 12، ط 1، 1995، ص ص 20-21

[3]- محمد الفاسي: الرحلات السفارية المغربية، **مجلة البينة**، العدد 6، السنة 1، أكتوبر 1962، ص 14

رافقوا السفير، وهي تفيد من حيث الملابسات والظروف التي تحيط بالسفارة، وتعطي معلومات عن أحوال البلاد التي توجّه إليها السفير؛ فهي إذن من أهم المصادر التاريخية.[4]

ولما تولّت الدولة العلوية مقاليد حكم المغرب اتجهت إلى الناحية الخارجية، وبدأت نشاطاً ديبلوماسياً كثيفاً نتجت عنه من الناحية الأدبية ثروة قيّمة تتجلّى في عدد الرحلات السفارية التي ألّفت في العصر العلوي منذ أيام المولى إسماعيل إلى عصر مولاي يوسف، لكن المرحلة المهمة التي انتعشت خلالها الرحلات السفارية المغربية هي فترة القرن التاسع عشر، خاصة وأنّ هذا السياق التاريخي يعبّر عن طبيعة العلاقة بين المغرب وأوربا. فقد قصدها عدد هائل من الأدباء والكتاب ومدوني التقارير المخزنية، قصد التعرف على حضارتها واستطلاع أخبار مدنيتها القوية والمثيرة، وهي الحركة التي تمّت برعاية ومباركة المخزن ذاته، منذ عهد السلطانين عبد الرحمن بن هشام والحسن الأول[5]. ويمكن القول إنّ هذه الحركة السفارية سعت إلى تحقيق هدفين أساسيين:

أولا: استطلاع أحوال الحضارة الأوربية، ومحاولة التعرف على مواطن قوتها، وأسباب مدنيتها العتيدة وذلك في سياقين:

1. اكتشاف أسباب القوة العسكرية الضاربة للقوى الأوربية كجيوش قوية في البر، وأساطيل متطورة في البحر.

2. محاولة اقتباس ما يمكن اقتباسه من مدنية أوربا من أجل إصلاح أحوال المغرب المتردية والمتأخرة.

ثانيا: سدّ الفراغ الديبلوماسي الذي كانت تعاني منه أجهزة الحكم المغربية فيما يتعلق بموقعها التفاوضي مع أوربا.

لكن رغم الحديث عن الحركة السفارية وأهدافها، فيجب علينا عدم إغفال السياق والظروف التاريخية التي أفرزت لنا هذا الزخم من الرحلات السفارية، والمرتبطة بهزيمتين عسكريتين للمغرب: الأولى معركة إيسلي سنة 1844 ضد فرنسا، والثانية هي حرب تطوان سنة 1860 ضد إسبانيا. وهنا تكمن أهمية هذين الحدثين في

---

[4]- المرجع نفسه، ص ص 14- 15

[5]- فريد لمريني: **صراع الحداثة والتقليد: معيقات التحول الليبرالي في المغرب**، دفاتر وجهة نظر، العدد 10، ط 1، 2006، ص 52

هذا السياق التاريخي كعامل جوهري أسهم في تأزيم مكانة المغرب على الصعيد الدولي، وفي خلخلة المجتمع المغربي كحضارة، وهذا ما يسميه بعض المؤرخين بـ**"الصدمة الأوربية"** أو **"صدمة الحداثة"**.[6]

لذا كان الخطاب السفاري في مجمله خلال هذه الفترة خطاباً تحديثياً داعياً إلى الأخذ ببعض مقومات الحداثة الأوربية في سبيل تقوية الدولة، بل وفي سبيل **"دولنة المجتمع"** المغربي آنئذ، والدفاع عن استقلاله الوطني[7]. وفي هذا السياق، تأتي رحلة كل من أبي الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي المعنونة بـ **"الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية"**، و**"تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"** لصاحبها سيدي محمد بن إدريس العمراوي في لحظة سمّاها الأستاذ سعيد بنسعيد العلوي بـ **"لحظة الهزيمة والاكتشاف"**؛ أي الوعي بالانهزام أمام الحضارة الأوربية، وإعادة اكتشافها أو بالأحرى اكتشاف هذا "الآخر الجديد"[8]. ولهذا، فإنّ لحظة الهزيمة والاكتشاف هذه هي التي نريد الوقوف عليها، ورصدها انطلاقاً من هاتين الرحلتين من خلال تقديم نبذة عن حياة الطاهر الفاسي وإدريس العمراوي، والسياق التاريخي الذي كُتبت فيه الرحلتان، ومضمونهما، وفي الأخير القيام بعملية المقارنة بينهما على مستوى خطابهما الموزع بين خطاب "حداثي"، وآخر "تقليدي" منغلق يعكس الخلفية الثقافية لكلّ من الطاهر الفاسي، وإدريس العمراوي، خاصة على مستوى تمثلهم للآخر في رحلتيهما.

نبذة عن حياة الطاهر الفاسي وإدريس العمراوي:

1- أبو الجمال محمد الطاهر الفاسي:

أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن بن محمد الرضى بن محمد بن الطاهر بن يوسف بن محمد أبي عسرية بن علي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي - رضي الله عنه -، ولد بفاس سنة 1246 هـ/1830 م، حيث درس بها وبعد إنهاء دراسته عيّن في القصر الملكي من جملة كتّابه، ويظهر أنه كان من العلماء المدرسين النفاعين، فلعله هجر الكتابة بدار المخزن بعد رجوعه من السفارة. وأقبل في السنين التسع الأخيرة من حياته على نشر العلم، ولم تطل حياة أبي الجمال الفاسي إذ توفي ببلده، وهو لم ينهِ العقد الرابع من عمره سنة 1285 هـ/ 1868 م. وقد خلّف لنا قبل وفاته هاته الرحلة: **"الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية"** التي ألفها عندما رافق سفارة مخزنية أرسلها السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن إلى إنجلترا كُلف بها الأمينان الحاج عبد

[6]- المرجع نفسه، ص ص 54- 55

[7]- عبد السلام الحيمر: **المغرب: الإسلام والحداثة...**، م.س، ص 166

[8]- سعيد بنسعيد العلوي: **أوربا في مرآة الرحلة...**، م.س، ص 49

الرحمن العاجي ومحمد الشامي[9]، وذلك باعتباره كاتباً لهذه السفارة التي توجهت في صيف 1860 ودامت حوالي الشهرين.

2- محمد بن إدريس العمراوي:

هو الحاج إدريس بن عبد الله بن محمد بن إدريس بن الحاج إدريس الزموري العمراوي أصله من مراكش الحمراء، ولم يشر أيّ مصدر إلى تاريخ ولادته، بل اهتمت كل المصادر بذكر عائلته، والتركيز على أنه ابن الوزير الحاج إدريس العمراوي الذي عمل بجانب السلطان مولاي عبد الرحمن، ولعب دوراً أساسياً في توجيه سياسة المخزن. استفاد السفير ابن إدريس من المكانة التي كان يحتلها أبوه فعكف على التحصيل والتثقيف. سافر إلى الحج وتوقف بعد عودته في القاهرة، حيث اتصل بعلماء مصر وأدبائها، ولما عاد إلى المغرب عينه السلطان مولاي عبد الرحمن كاتباً في صفوف المخزن. وبعد تولية السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن اتخذه كاتباً له، وكلّفه بمهمتين: الأولى إلى إسبانيا، والثانية إلى فرنسا. أما بالنسبة لرحلته السفارية إلى فرنسا، فقد توجه إليها سنة 1860، إذ نعرف مراحلها وتفاصيلها منذ أن غادر فاس متوجهاً إلى فرنسا إلى يوم عودته لطنجة[10]، من خلال وصفه لما شاهده في سفره من المنتزهات ودور الآثار والسكك والسلاح والسياسة والنظام والمدن التي دخلها والعوائد والأخلاق التي رآها وصفاً كاشفاً[11]، ونقله الأحاديث التي دارت بينه وبين المسؤولين الفرنسيين على مختلف مستوياتهم، مدوناً كل ذلك في رحلته التي جاءت صورة ناطقة عن المجتمع الفرنسي سنة 1860، والتي أسماها: **"تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"**. وابن إدريس العمراوي يعتبر من أدباء المغرب وشعرائه المشهورين خلال هذه الفترة، وقد توفي سنة 1296 هـ / 1879 م بعد إصابته بوباء حيث دفن برباط الفتح.

السياق التاريخي للرحلتين:

عرفت أوربا خلال القرن التاسع عشر تغيرات جذرية عميقة على المستوى السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي أدّت إلى ظهور قوى استعمارية كبرى تتنافس فيما بينها خاصة فرنسا، وبريطانيا، وإسبانيا بدرجة أقل من أجل السيطرة على شمال إفريقيا وخاصة بلدان المغرب الكبير: تونس، والجزائر، والمغرب. هذا الأخير الذي نهج سياسة الانكماش والمهادنة أدّت به شيئاً فشيئاً إلى قطع الصلة بالعالم الخارجي ومع أوربا بالخصوص، وقد نجح المغرب بفضل هذه السياسة في تأخير احتلاله من طرف الدول الاستعمارية، لكن

---

[9]- أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي: **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية**، تحقيق محمد الفاسي، سلسلة الرحلات - 3- سفارية - 2-، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس، 1967، ص أ- ب.

[10]- إدريس العمراوي: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، تقديم وتعليق: زكي مبارك، طنجة، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع للشمال، 1985، ص ص 16- 19

[11]- عبد الرحمن بن زيدان: **اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (الجزء 2)**، ط 2، الرباط، المطبعة الوطنية، 1990، ص 33

احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 جعل المغرب يشعر بالخطر الأكيد والمحدق به، والمتجلي في وجود جيوش دولة استعمارية على عتبة أبوابه وممتدة على طول حدوده.[12] وقد استطاعت فرنسا بفضل هذا الجوار أن تزيد ضغوطها على المغرب، باعتباره المحطة الثانية التي كانت تفكر فرنسا في احتلالها في إطار مشروعها الاستعماري الكبير في شمال إفريقيا، وقد استغلت فرنسا مناوشات الحدود، ولجوء القبائل الجزائرية إلى التراب المغربي عند فرارها من الجيوش الفرنسية، ودعم المغرب لمقاومة الأمير عبد القادر الجزائري لتخوض مع المغرب معركة إيسلي سنة 1844 التي كانت نتيجتها انهزام الجيش المغربي، وفرض فرنسا على المغرب شروطاً قاسية كانت بداية للضربة والتكالب الأوربي عليه.[13]

في هذا السياق المتسم بظهور ضعف المغرب الواضح على المستوى السياسي والعسكري، قامت إسبانيا باستغلال هذا الوضع للاستيلاء على الجزر الجعفرية سنة 1848 لتمارس ضغوطاً متزايدة عليه. وهكذا أدت مجريات الأحداث والرغبة الإسبانية الاستعمارية إلى قيام حرب بين المغرب وإسبانيا، عندما قامت هذه الأخيرة بهجوم على المغرب يوم 24 أكتوبر 1859. وبعد شهرين ونصف من المواجهة غير المتكافئة احتلت اسبانيا مدينة تطوان، واعتبر المغاربة احتلال هذه المدينة بمثابة الضربة القاضية على كيان المغرب كله[14]. وعبّر أحمد الناصري بمرارة عن هذه الهزيمة ومضاعفاتها قائلاً: **"ووقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب، واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انكساراً لم يعهد لهم مثله وكثرت الحمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير ...".**[15]

لم تكن حرب تطوان سنة 1860 هزيمة عسكرية فحسب، بل هزيمة حضارية، أو لنقل إنّ الدرس الناتج عنها كان درساً عميقاً في دلالته الحضارية، كان الدرس كذلك لأنّ الحرب كشفت بشكل ملموس أنّ تشييد الدولة الحديثة بمعنى إصلاح مؤسسة المخزن لا يتطلب فقط إصلاح أوضاع المؤسسة العسكرية من خلال تحديثها على الطريقة الأوربية المتقدمة، بل ضرورة إنجاز إصلاح مالي جذري، بمعنى إصلاح المرافق الإدارية والمالية للدولة، كنظام الجبايات والضرائب المختلفة من أجل توفير مصادر جديدة لتمويل عملية الإصلاح المستعجلة[16]. وفي جو هذه الهزيمة التي عبّرت عن أزمة المجتمع والدولة في مغرب القرن التاسع عشر، قام السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بإرسال بعثتين سفاريتين مباشرة بعد هزيمة تطوان سنة 1860 وفي السنة نفسها، أرسل الأولى إلى فرنسا بقيادة الوزير والكاتب إدريس العمراوي، والثانية إلى إنجلترا حيث كان ضمنها أبو الجمال الطاهر الفاسي. وفي هاتين الرحلتين عكس لنا صاحباها رؤية المثقف المغربي خلال القرن

[12]- إدريس العمراوي...، م.س، ص ص 13-14

[13]- عبد المجيد القدوري: **سفراء مغاربة في أوربا 1610-1922**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 13، ط 1، 1995، ص 32

[14]- المرجع نفسه، ن.ص.

[15]- أحمد الناصري: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الجزء 9)**، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1956، ص 101

[16]- فريد لمريني: **صراع الحداثة والتقليد: معيقات التحول الليبرالي في المغرب**...، م.س، ص 58

التاسع عشر للأزمة التي يعيشها المغرب على جميع المستويات، ونظرتهم للآخر وعلاقته بالأنا المغربية. وتعكس هذه النصوص السفارية أيضاً تصوراتهم للواقع المجتمعي المغربي مستقبلاً في أفق الاستفادة من التجربة الحداثية الأوربية في مختلف المجالات، وعلى وجه الخصوص المجال العسكري والاقتصادي.

ملخص مضمون الرحلتين:

أ- الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية:

فيما يخص هذه الرحلة، فهي تتناول موضوع رحلة البعثة السفارية التي أرسلها السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن مباشرة بعد حرب تطوان سنة 1860 إلى إنجلترا في عهد الملكة فيكتوريا، لكن مهمتها ظلت، رغم كل هذا محاطة بغموض يعكس السمة البارزة لجلّ الرحلات المغربية على مستوى عدم التصريح المباشر فيها عن طبيعة مهماتها، وأهدافها وجدول أعمالها. وقد كانت هذه البعثة تتكون من ثلاثة أفراد: الحاج الأمين عبد الرحمن الفاسي، ومحمد المطاع، وأبي الجمال الطاهر الفاسي الذي كان كاتباً للبعثة.

قام الطاهر الفاسي في هذه الرحلة بوصف دقيق ومباشر لكل ما شاهده منذ أن ركب الباخرة التي أقلته من طنجة إلى أن رجع للعاصمة المغربية فاس، حيث دامت رحلته سبعين يوماً[17]، وهي تعكس تصوره لمظاهر الحداثة الأوربية الحاضرة بقوة في المجتمع البريطاني الحديث وموقفه منها. يبدو محمد الطاهر الفاسي في رحلته في موقف الإنسان المنذهل الحائر أمام المستحدثات التكنولوجية التي أصبحت تؤطر حياة الإنسان الأوروبي عامة والإنجليزي بصفة خاصة، إضافة إلى نظام الدولة الليبرالية البريطانية وقوتها الفائقة التي لمس أسسها وركائزها في: التكنولوجيا، والجيش المنظم، وريادة الطبقة البرجوازية التي تعدت المجال الاقتصادي إلى المجال العسكري أيضاً[18]. ولأن الطاهر الفاسي لم يصادف منذ خروجه من طنجة قاصداً بورسموث فلندن إلا ما يدهش ويعجب، فسنقسم الوصف الذي قدمه في رحلته إلى قسمين:

- **القسم الأول**: متعلق برحلته من المغرب إلى إنجلترا وبالضبط من طنجة إلى بورسموث ثم لندن، والأساسي في هذا القسم هو الوصف الذي قدمه الطاهر الفاسي لعدة مظاهر للحداثة البريطانية وأبرزها: الباخرة ومكوناتها، وميزان الطقس الذي أثار استغرابه وإعجابه وعبر عن ذلك قائلاً: **"...ولهذا آلة معدة لهذا المعنى شبه المجانة المعروفة، وصورتها دائرة مركبة من نحاس وغيره، وعليها زجاجة، وبهذه الدائرة عمود متصل بها، ووسطها كله منحوت مملوء بزئبق (...) فترى الواحد يخبرك بالتغير قبل ظهوره، ويقول لك غداً ينزل المطر مثلاً فينزل في الغد..."**[19]. إضافة إلى هذا، وصف الفاسي مرسى بورسموث، وأثار إعجابه

---

[17]- أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي: **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية**...، م.س، ص: ت.

[18]- عبد السلام الحيمر: **المغرب: الإسلام والحداثة**...، م.س، ص 150

[19]- أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي: **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية**...، م.س، ص 6

واستغرابه وجود "بابور البر"؛ أي القطار الذي يخترق الجبال الوعرة ويختزل المسافات الطوال في أقرب مدة.

- **القسم الثاني**: متعلق بوصول البعثة السفارية المغربية إلى لندن، وإعجاب الفاسي بمظاهر الحضارة البريطانية من ناحية التكنولوجيا، ونظم الدولة العصرية: عسكرياً، واقتصادياً على وجه الخصوص. ففي المجال التكنولوجي وصف الطاهر الفاسي السفينة البحرية، والسكك الحديدية ومعامل السلاح والخشب والزجاج والتلغراف، حيث عبّر عن هذا الأخير قائلاً: **"وبعد هذا ذهبنا لمحل السلك المعد لورود الأخبار من المحال وتوجيهها، وسبب دخولنا إليه أن أصحابنا الذين كانوا - ببريز - سمعوا بخبر الريح الأصفر بفاس** (يعني الكوليرا) **وما والاها وبقوا على شك من ذلك، فأرادوا أن يحققوا الخبر عن ذلك ويسألونا عنه وطلبوا من أرباب صنعته هنالك أن يخبرونا بواسطة أرباب صنعتهم - باللندريز - ووقتوا لذلك وقتاً معيناً وهو الساعة العاشرة من النهار، فأجبناهم لذلك (...) فحرك السلك هنالك - ببريز - فجعل من معنا بمحل صنعة - اللندريز - يلتقط الحروف فاجتمع له من ذاك: أن أصحابكم أتوا لمحل السلك هنالك ثم هزرنا لهم السلك للإعلام بحضورنا والسؤال عنهم وعن أحوالهم فأجابونا وسألونا عن تحقيق الخبر المذكور بما لدينا (...) ومقدار كلامنا وكلامهم من أوله إلى آخره أقل من - قسم - مجاني، ومسافة ما بين اللندريز وباريز من الأميال خمسمائة ومقدار ما يصل الخبر في السلك من اللندريز إلى اصطنبول أربع سوائع مجانية..."**[20]. كما تناول الطاهر الفاسي أيضاً في رحلته مظاهر أخرى للحداثة البريطانية، كالأبناك والغراسة بالتسخين الصناعي في حظائر مسقفة تنتج فواكه وخضراً في غير فصولها الطبيعية[21]، لكن أهم جانب ركز عليه الكاتب في رحلته هو الجيش الذي شغل المجال الأهم والأعظم فيها، ولم يكن اهتمام الفاسي بهذا الجانب اعتباطياً، بل إنه يعبر عن وعي النخبة المغربية بكافة شرائحها الفكرية والاجتماعية بأهمية الجانب العسكري، خاصة وأن هذه الرحلة جاءت في سياق مرحلة ما بعد حرب تطوان مباشرة، والتي عرفت هزيمة المغرب عسكرياً، وقبلها هزيمة ايسلي، حيث عبّرتا على أنه لا سبيل لبقاء المخزن قوياً ومهاباً في الداخل والخارج إلا بضرورة تحديث الجيش والمؤسسة العسكرية وإصلاح أجهزته القديمة والمهترئة التي أبانت خططها الحربية التقليدية، وحسها التنظيمي الرديء، علاوة على روحها القتالية الضعيفة في ساحة المعركة، على أنها أصبحت بفعل التطور التنظيمي والتقني الرفيع للآلة الحربية الأوربية متجاوزة ومحتاجة لتغيير وإصلاح[22]. وهكذا وصف لنا الفاسي كلّ الجوانب المتعلقة بالجيش بداية باستعراض الجنود، حيث يصف قائلا: **"...فتسرد العسكر مثلما تقدم، وبعد مرور الألف يقف أرباب - موسقاته - مثل ما تقدم (...) وكل ألف من هذا العسكر يتبعه عدد من المدفع محمول على – كراريط - تجرها خيل جياد، وتتبعها أيضاً كراريط خاوية (...) وكل واحد من هذا العسكر حامل**

20- أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي: **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية...**، م.س، ص 36

21- عبد السلام الحيمر: **المغرب: الإسلام والحداثة...**، م.س، ص 152

22- فريد لمريني: **صراع الحداثة والتقليد: معيقات التحول الليبرالي في المغرب...**، م.س، ص ص 55- 56

لفراشه وآنية أكله وشربه وزاده، ومنه من هو حامل للشواقر مغلقة في جلد، ومنه من هو حامل ـ للخنانيش ـ والفؤوس في غلافها أيضاً من جلد"[23]. إضافة إلى وصفه لمناورة حربية قائلاً: **"...وجعلت كل فرقة مقابلة للأخرى على هيئة القتال، وكل فرقة بمدفعها و ـ كراريطها ـ وجعلوا يضربون البارود بالمدافع المعروفة عندنا بالمكاحل (...) ثم إن فرقة أخرى كأنها سمعت الصريخ وصحبهم العدو بها مثلاً بغابة هنالك ففزعت إليها ودارت بها دور الخاتم بالأصبع في أسرع مدة، وشرذمة منهم على خيولهم أثرهم مستفزة (...) وصفقت الأيادي احتجاباً، وتغامزت الأعين استغراباً، وجعلت تضرب ـ البارود ـ حتى أظلم الجو هنالك كهيئة القتال..."**[24]. ليختم الجانب المتعلق بالجيش بوصف التدريبات في الرماية، ومعامل ومتاحف الأسلحة.

والظاهر من خلال وصف أبي الجمال الطاهر الفاسي، أنّ مظاهر الحداثة الأوربية أثارت استغرابه ودهشته وإعجابه في الوقت نفسه، لكنه كان في كل مرة يصف فيها إحدى المظاهر الحضارية تحضر شخصية الفقيه الديني المتزمت والمنغلق في خطابه الوصفي، حيث يقدّم تفسيرات وتأويلات دينية لكل الاختراعات والمظاهر انطلاقاً من ثقافته، وخلفيته الفقهية المتحكمة فيه، مما جعل خطاب أبي الجمال الطاهر الفاسي خطاباً دينياً منغلقاً مكفراً للمجتمعات الأوربية، رغم تفوقها على المجتمعات العربية الإسلامية حضارياً، وذلك من خلال العبارات التي استعملها، وهي: **"دار الإسلام"** و**"دار الكفر"**. وفي مقابل هذا الخطاب، سنجد خطاباً "حداثياً" وهذه المرة مع إدريس العمراوي في رحلته **"تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"**.

ب- تحفة الملك العزيز بمملكة باريز:

تتناول هذه الرحلة موضوع البعثة السفارية المغربية التي أرسلها سيدي محمد بن عبد الرحمن مباشرة بعد حرب تطوان سنة 1860 إلى فرنسا في عهد نابليون الثالث، حيث ترأسها إدريس العمراوي. لكنّ مهمة هذه البعثة والسبب في إرسالها غير معروف، وهي بهذا المعطى لا تخرج عن غيرها من الرحلات السفارية الأخرى التي لا يعرف سبب إرسال بعثاتها، إلا أننا نجد في مقدمة الرحلة بعض الإشارات تجعلنا نقترب من فهم الموضوع، وعلى سبيل المثال **"ولما رأى أعزه الله تكالب النصارى على الثغور والمراسي وحدثت منهم أمور تمور منها الرواسي تدارك بسياسة ذلك الخرق فأرقعه (...) فوجهني أعلا الله قدره ونشر في الخافقين ذكره بكتابه الشريف إلى طاغية الفرنصيص وحملني من أوامره الشريفة ومقاصده المنيفة بالإطلاق والتنصيص ما فيه عن الإسلام والصلاح العام..."**[25]. إلا أن مصادر عربية وأجنبية تكشف عن بعض جوانب موضوع الرحلة؛ فمنها التي تقول بأنها كانت تتعلق بقضية الحدود المغربية الجزائرية، والمناوشات التي تقوم بها الجيوش الفرنسية على الحدود المغربية، وأخرى تشير بأن موضوع الرحلة كان يتعلق بطلب من المغرب

---

[23]- أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي...، م.س، ص ص 17-18

[24]- المصدر نفسه، ص ص 18-19

[25]- إدريس العمراوي: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز...**، م.س، ص ص 33- 34

لكل من فرنسا وإنجلترا لتتدخل الدولتان لدى الإسبان في محاولة للحصول على تخفيض لتعويضات حرب تطوان التي التزم المغرب بدفعها لإسبانيا، طبقاً لما تنصّ عليه اتفاقية الهدنة المبرمة بتاريخ ماي 1860.[26]

ومهما يكن من اختلافات حول موضوع الرحلة، فإنّ الأساسي هو معرفة ماذا تناول العمراوي فيها؟ لقد قام الوزير إدريس العمراوي بعملية نقل أحوال المجتمع الفرنسي إبان عهد نابليون الثالث، ولذلك يهتم في الرحلة بوصف أوضاع المجتمع الفرنسي، وبعض مقومات الحداثة الفرنسية على النحو الذي تجلت له في عدد من المظاهر الاجتماعية والعمرانية والسياسية والتكنولوجية. كما اهتم في رحلته بوصف مختلف الاختراعات الحديثة غير مخفٍ اندهاشه، مما صادفه من الأمور الغريبة والعجائب المحيرة للأذهان، مبرزاً مشاعره من الحياة الباريزية، والتنظيمات التي تضبط إيقاع عالم التجارة والصناعة[27]. وبحكم أنّ رحلة العمراوي تناولت شتى مناحي الحياة في المجتمع الفرنسي سواء سياسياً أو اقتصادياً أو ثقافياً أو عسكرياً أو اجتماعياً، فإننا سنقسم متن الرحلة إلى ثلاثة أقسام:

- **<u>القسم الأول: الجانب السياسي والعسكري</u>:** أورد العمراوي معلومات مفصلة عن واقع فرنسا السياسي، سواء تعلق الأمر برجالات الدولة أو بمؤسساتها. وانبهر هذا السفير بشخصية نابليون الثالث، وفصّل الكلام فيه وعنه، فخصّه بأوصاف مثيرة: **"... بلغنا أنه أدهى ملوك النصارى وأشهمهم وأنتجهم رأيا وأصوبهم سياسة وتدبيرا وأكثرهم حزما في أموره..."**[28]. ورأى فيه الرجل السياسي الذي كان لا يتردد في استعمال كل السبل ليبلغ مرماه، ولم يقف العمراوي عند هذا الحد، بل أطال الكلام عن إعلان الجمهورية الفرنسية بعد ثورة 1848: **"... حتى ثارت إفرانصة على الملك الذي كان عليهم لأمور نقموها عليه ورغبوا في حكومة الكرطيل من غير أن يجعلوا ملكا مستقلا وإنما يجعلون للكرطيل رئيسا يقيم مرأسا ثلاث سنين ويعزل ويرأس غيره..."**[29]. وتتبع العمراوي الخطوات التي سار عليها نابليون الثالث، والتدابير التي اتخذها هذا الأخير من أجل الانفراد بالحكم خاصة انقلابه في دجنبر 1851. وأعجب العمراوي بالنظام البرلماني الذي كانت تتبعه فرنسا، واعتبر المؤسسة مفيدة، لأن اجتماع الفرنسيين فيها كان بدافع الحفاظ على مصالح بلادهم[30]، حيث يعبر عن ذلك في رحلته قائلاً: **"...ومن عوائدهم السياسية التي جرى عليها عملهم أن يجتمع في كل سنة بباريز ستمائة رجل من كل مدينة (...) يحضر معهم فيها الوزراء وسائر رؤساء الدولة يتذاكرون فيما يصلح بلادهم (...) ويحاسبون الدولة على ما دخل عليها وما خرج من يدها..."**.[31]

---

[26]- إدريس العمراوي: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز...**، م.س، ص 24

[27]- عبد الفتاح الحجمري: المغرب والغرب، **مجلة المناهل**: المغرب والآخر، العدد 66 - 67، السنة 26، 2002، ص 434

[28]- إدريس العمراوي...، م.س، ص 107

[29]- المصدر نفسه، ص 109

[30]- عبد المجيد القدوري: **سفراء مغاربة في أوربا 1610-1922...**، م.س، ص 63

[31]- إدريس العمراوي: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز...**، م.س، ص ص 116-117

وركز العمراوي من جهة أخرى على الطريقة التي كانت تسير بها الشؤون العامة، ولاحظ أنّ الكفاءة واحترام القانون أساس تدبير الأمور في فرنسا، كما دوّن ملاحظاته عن التوتر الفرنسي الإنجليزي عندما قال: **"...لما تم له** (يقصد نابليون) **ملكه تشوقت نفسه إلى الرياسة على جميع الممالك ونفوذ كلمته عندهم ويحب أن يخمل كلمة دولة الانجليز ويزيل لهم تلك الرياسة التي اكتسبوها على جميع الأجناس ...".**[32]

أمّا الجانب العسكري، فقد خصّه العمراوي بفقرات طوال من رحلته، حيث ركز على الجيش الفرنسي وتنظيماته وقوانينه، وقد كان هذا الاهتمام الكبير من طرف الكاتب بهذا المجال مسألة طبيعية بحكم أنه عاش هزيمة الجيش المغربي في حرب تطوان 1860، مما خلّف أثراً سيئاً في نفسيته ونفسية النخبة المغربية المثقفة آنذاك. يعزو العمراوي نظام الجيش الفرنسي الحديث وقوته إلى ارتكازه على قوانين يعترف بها الجميع، ويخضع لها في مجال الجيش كافة المنخرطين في صفوفه ويلتزمون باحترامها مهما كانت مراكزهم ورتبهم. ولذلك اهتمت الدولة بتأسيس مدارس عسكرية يتعلم فيها الجنود علوماً عسكرية. وعندما تحدث نزاعات بين بعض أفراد الجيش مهما اختلفت مراتبهم يحتكمون إلى القانون قصد ترسيخ النظام ووحدة الصف[33]، حيث يقول العمراوي: **"... ولو شكا أدنى عسكري من باشا الجيش رفعوا قضيته معه لمجلس الحكم ونظروا فيها حتى تفصل بالعدل فبذلك وقف كل واحد عند حده فأمنوا بوائقه وفتنه فترى قائد المائة يفتقد مائته واحدا بعد واحد كأنهم أولاده ولا يخاطب أحدا منهم إلا بالسيادة ولا يشتم لأحدهم عرضا ولا أبا ولو كان مجرما بل يأتي بالمجرم فيجمع عليه العسكر وقواد المائة (...) ويمكنه من المدافعة عن نفسه وإظهار حجته حتى يغلب بالحجة ثم ينفذ فيه الحكم من غير إظهار شماتة ولا تشف...".**[34]

لكنّ الضبط الصارم لا يكفي وحده في امتلاك جيش عتيد، بل لا بدّ من شرط ضروري أكيد هو الكفاءة للحصول على أرفع المناصب في الجيش، وهذا ما عبّر عنه العمراوي، بقوله: **"... فمن ظهرت له مزية وهو عسكري استحق بها أن يكون مقدما، وإن كان مقدما استحق بها أن يكون قائد مائة (...) ولا ترى أحدا منهم يدرك التقدم بغير المزية ولا يخطر في خاطر أحد من الرؤساء أن يقدم أحداً في العسكر لكونه صديقه أو قريبه..."**[35]. وهكذا يظهر أنّ الوصف الحيّ لمؤسسة الجيش الفرنسي في رحلة العمراوي، يوحي بنقد غير مباشر لأوضاع الجيش المغربي المتردّية في تلك الفترة.

- <u>**القسم الثاني: الجانب الاقتصادي والمالي**</u>: فيما يخص الميدان الفلاحي تحدث العمراوي عن ظاهرة الفلاحة الصناعية، حيث قدّم تفاصيل كثيرة عن البعد الصناعي للقطاع الفلاحي، كما فصل العمراوي في

---

[32]- المصدر نفسه، ص 112

[33]- عبد السلام الحيمر: **المغرب: الإسلام والحداثة**...، م.س، ص 176

[34]- إدريس العمراوي: **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**...، م.س، ص ص 122- 123

[35]- المصدر نفسه، ص 118

العلاقة ما بين الدولة الرأسمالية الليبرالية والبرجوازية التي أسهمت في تطوير النشاط الاقتصادي الذي أصبح بيد هذه الفئة الأخيرة، وهذا ما أسهم في خلق فئات اجتماعية يتنافس أفرادها في تطوير وتوجيه وامتلاك هذا النشاط، إضافة إلى استفادة الدولة من خبرة الطبقة البورجوازية لتطوير النشاط الاقتصادي. وهكذا يلاحظ أنّ العمراوي ركز بشكل كبير على فئة التجار أو البرجوازية، باعتبارها عصب النشاط الاقتصادي والمالي في فرنسا.

- **<u>القسم الثالث: الجانب التكنولوجي والاختراعات</u>:** حاول العمراوي أن يصف خلال رحلته أبرز المستحدثات التكنولوجية الموجودة بفرنسا، وهكذا فقد خصّص أربع صفحات من رحلته لبابور البر، فدقق في أوصاف القاطرة كما فسّر الحركات الفيزيائية التي يسير بواسطتها القطار. ويحاول أن ينقل إلى القارئ التجارب التي مرّت فيها عملية استعماله كوسيلة من وسائل النقل. واستمر العمراوي في ذكر ما وصلت إليه فرنسا من تجهيزات فذكر أنّ القطار الذي ركبه قد مرّ على خمسة عشر جبلا، وعلى أزيد من مائتي قنطرة، ولاحظ أنّ سرعته أكثر من سرعة بابور البحر[36]. وأنهى كلامه عن القطار بتعجب قائلا: **"وبالجملة فما سمعت أذني ولا رأت عيني ولا طالعت في كتب التواريخ بأعجب ولا أغرب من هذا البابور وكل ما حكيت عنه فهو دون ما رأيت"**[37]. كما وصف العمراوي دار الطباعة وعلّق بإعجاب على ما شاهده منها طالباً من السلطان أن يستحدث المطبعة في المغرب قائلاً: **"... وهذه الآلة التي اتخذوها للطبع في كل الأمور عامة النفع معينة على تكثير الكتب والعلوم، وأثرها في ذلك واضح معلوم وقد اتخذوها في جميع بلاد الإسلام واغتبط بها مشاهير العلماء الأعلام..."**[38]. ويقول موجهاً دعوته إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن:**"... ونطلب من الله بوجود مولانا أمير المؤمنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة ويجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة..."**[39]. ومن أهم ما استرعى اهتمام العمراوي، واعتبره أداة لمعرفة ما يجري في العالم وبسرعة مذهلة اختراعهم للتليغراف: **"وصفة بعض ما ظهر لي منه سلك ممتد من بلد إلى بلد محمول على خشبات شاخصة فإذا وصل للبحر جعلوه في براميل وغرقوه في قعره بما يثقله (...) وقد أخبرنا رئيس ذلك المحل أنهم في أربع دقائق يكتسبون أخبار كثير من الأقاليم (...) حتى كأنهم حاضرون فيها (...) وقد قربوا بها البعيد، وهونوا الخطب الشديد، وفيه أدل دليل على أن أمورهم بلغت الغاية وتجاوزت النهاية..."**[40]. هكذا يظهر من خلال رحلة إدريس العمراوي مدى انفتاح خطاب هذا الأخير وإعجابه بالحداثة، وتطلعه إلى اقتباس بعض ثمراتها من أجل تطوير المجتمع المغربي، وتحديثه على جميع المستويات من أجل مواجهة التحديات التي يفرضها تطور العالم وخاصة أوربا في القرن التاسع عشر.

---

[36]- عبد المجيد القدوري: **سفراء مغاربة في أوربا 1610-1922**...، م.س، ص ص 74-75

[37]- إدريس العمراوي: **تحفة الملك بمملكة باريز**...، م.س، ص 48

[38]- المصدر نفسه، ص 79

[39]- نفسه، ص ص 79 - 80

[40]- نفسه، ص ص 84 - 86

ج ـ المقارنة بين الرحلتين:

يظهر من خلال دراستنا للرحلتين الفرق الشاسع الموجود بينهما على مستوى الخطاب؛ فالطاهر الفاسي في رحلته الإبريزية يعكس شخصية الفقيه المنغلق ذي العقلية التقليدية، والخلفية الدينية الأشعرية الصرفة خاصة على مستوى رؤيته للحداثة الأوربية، وتفسير كل التطورات التي عرفها المجتمع الإنجليزي. أما إدريس العمراوي في تحفة الملك العزيز، فهو يعكس شخصية الفقيه الأديب المنفتح على أوربا والمتحمس لاستلهام حداثتها التكنولوجية، وحسن تنظيماتها العسكرية والإدارية[41]، من أجل إخراج المغرب ومجتمعه من مخالب التخلف الشامل الذي ينخر بنياته الثقافية والسوسيو اقتصادية. لذلك سنحاول خلال هذا المحور استخراج ودراسة تجليات هذين الخطابين في رحلتي كلّ من الفاسي والعمراوي، وموقفهما من الحداثة كلّ حسب مرجعيته وخلفيته الدينية والثقافية.

بالبنسبة للطاهر الفاسي، فرغم حديثه ووصفه للعديد من مظاهر الحداثة الأوربية بإنجلترا؛ فقد حاول أن يبحث عن سرّ وجودها وتطورها لدى الأمّة الإنجليزية، فوجد ذلك السر في الطاقة البخارية: فالباخرة التي أقلته من طنجة إلى بورسموث تسير بها، والقطار الذي سار فيه إلى لندن هي التي أمدته بسرعته الخارقة، بل إنّ التلغراف ومعمل نشر الخشب وصك النقود وصناعة السلاح كلها تتحرك بفضل الطاقة البخارية، ولذلك رأى الطاهر الفاسي أنه من الواجب عليه أن يقرب إلى أذهان قرائه كيف تمكن الإنجليز من اكتشاف الطاقة البخارية التي درج على تسميتها بالبابور، فقال: **"وسبب إحداثهم له، أن صبياً كانت بيده ناعورة صغيرة من ـ كاغيد ـ فجعلها متصلة بجعب في فم بقرج على نار وبعد اشتداد غليان الماء فيه، فجعلت تدور بقوة ذلك البخار فرآه رجل فتعجب واستنبط هذا البابور المعروف بعقله الظلماني، لأن العقل على قسمين ظلماني ونوراني، فالظلماني به يدركون هذه الأشياء الظلمانية، ويزيدهم ذلك توغلا في كفرهم، والنوراني به يدرك المومن المسائل المعنوية (...) ومن هذا الباب وصفهم الله في غير ما آية بعدم العقل، وبعدم التفكر وبعدم الفقه"**[42].
نستخلص من كلام الطاهر الفاسي أنّ العقل أداة الاختراع والابتكار والاستنباط، فإذا كان الإنجليز اكتشفوا الطاقة البخارية فليس لأنهم نصارى، بل لأنهم بشر يعتمدون العقل في اكتشاف أسرار الطبيعة وتسخيرها، بيد أنّ هذا الاختراع في حد ذاته لا قيمة له، فهو في أصله لعبة صبيانية من جهة، وهو نتاج للعقل الظلماني لا للعقل النوراني من جهة أخرى. ومادام العقل الظلماني عقل الفلاسفة وعلماء الطبيعة والمخترعين (وكلهم حسب التقليد الأشعري المنحدر من الإمام الغزالي كفار)، يتخذ الطبيعة موضوعاً له، ومادامت الطبيعة هي الدنيا، والدنيا دار فناء وزوال ووهم، فإن ذلك العقل واكتشافاته لا قيمة لها جميعاً.[43]

---

[41]- عبد السلام الحيمر: **النخبة المغربية وإشكالية التحديث**، ط 1، الدار البيضاء، الملتقى، 2001، ص 146

[42]- أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي: **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية**...، م.س، ص 28

[43]- عبد السلام الحيمر: **المغرب: الإسلام والحداثة**...، م.س، ص ص 153-154

وأما العقل النوراني عقل الفقهاء والمتصوفة المؤمنين الذين يتسامون عن الحياة الدنيا للكشف عن الحقائق القدسية للدار الآخرة الباقية الأبدية؛ فهو العقل الأسمى والأرقى، بل هو العقل الحق، فلا تستمد الأشياء قيمتها إلا منه. وهذه المخترعات والمستحدثات التكنولوجية التي تعتمد عليها الحضارة الإنجليزية لا قيمة لها في نظر الطاهر الفاسي، لأنها غير مستنبطة من قبل العقل النوراني، ولا تنتمي إلى مُثله وحقائقه السامية الأبدية. وهكذا يقحمنا الطاهر الفاسي في نوع من الأنطولوجيا التقليدية التي لا تكتفي بتقسيم العالم الدنيوي إلى دار حرب وكفر / ودار إسلام وسلام وإيمان، بل إنها تضيف إلى ذلك تقسيماً ثنائياً للوجود برمّته إلى: دار دنيا / ودار آخرة، وللعقل إلى ظلماني ونوراني، وللقيم إلى قيم المؤمن وقيم الكافر.[44]

وتبعا لهذا المنطق لا يرى الطاهر الفاسي في التقدم التكنولوجي الإنجليزي الذي به أصبحت الدولة الإنجليزية إمبراطورية استعمارية لا تغيب عنها الشمس، إلا مظهراً من مظاهر قدرة الله المتعالية، ومشيئته الخارقة للعادة. فالباروميتر تصدق نبوءاته، لأنّ: **"قدرة الله صالحة لذلك"**[45]. ومدينة لندن منظمة وعظيمة شامخة البنيان كثيرة البساتين، ولأهلها خيول مدربة مؤدبة لأنّ الله: **"سخر لهم الأشياء مع اتباعهم الأهواء، ليظهر صنع الله في العكس والطرد وليعلم العاقل أنه لا غرض له في القرب والبعد (...) وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد"**[46]. وبالرغم من إقرار أبي الجمال الطاهر الفاسي بالتفوق الإنجليزي، سواء في مجال التكنولوجيا العسكرية أو المدنية تفوقاً جعله يكتب عن الإنجليز بأنهم: **"يستعملون أشياء تدهش سيما من رآها فجأة وربما اختل مزاجه من أجل ذلك"**، فإنه لم ير في ذلك التفوق إلا **"إشارة إلى أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة"**، وأن **"الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن والآخرة جنة المؤمن وسجن الكافر"**. ولما كانت الآخرة هي دار البقاء والدنيا دار الفناء، فإنّ التفوق الإنجليزي حسب الطاهر الفاسي عابر زائل، إذ سرعان ما تدور عجلة الزمن لتعود بالتاريخ البشري إلى أصله، والأصل هو تفوق المؤمنين المسلمين على الكفار النصارى وغيرهم. ومن خلال آراء الفاسي، نلاحظ حضوراً واضحاً للأفكار الغنوصية الفارسية، ولبعض أفكار الفلاسفة اليونان كسقراط وأفلاطون وقد وظّفت توظيفاً دينياً فقهياً.[47]

أما إدريس العمراوي، فيظهر من خلال رحلته **"تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"** أنه من رجال المخزن المتفتحين على الحداثة الأوربية الذين كانوا يودّون اقتباس بعض جوانبها (التيكنولوجيا) كسبيل لابد منه لتقوية الدولة وصيانة الاستقلال الوطني، والثابت من قراءة متن رحلته أنّ إدريس العمراوي كان مطلعاً على رحلة رفاعة الطهطاوي: **"تخليص الإبريز في تلخيص باريز"**، ويظهر أنّ رؤية الطهطاوي الليبرالية قد أسهمت بقدر ما في صياغة موقف العمراوي من الحداثة الأوربية، وخطابه الداعي إلى الأخذ بالمستحدثات التكنولوجية

[44]- المرجع نفسه، ص 154

[45]- أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي: **الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية**...، م.س، ص 6

[46]- المصدر نفسه، ص 11

[47]- عبد السلام الحيمر: **المغرب: الإسلام والحداثة**...، م.س، ص 202

الحداثية في فرنسا، رغم ما بين الرجلين من اختلافات في طريقة النظر إلى الأشياء وتقييمها. فقد كان الطهطاوي يصدر فيما يكتبه عن نزعة فكرية يقول عنها أحد دارسيه **"حسن حنفي"** إنها نزعة معتزلية، علاوة على إقامته الطويلة نسبياً في فرنسا، وإتقانه للفرنسية وإطلاعه على جزء من الأفكار والآداب الفرنسية والأوربية[48]. لكن بالنسبة لإدريس العمراوي، فقد كان يصدر فيما يكتبه من الناحية الفكرية عن نزعة فقهية سنية أشعرية، بالإضافة إلى كونه لم يمكث في فرنسا إلا أسابيع قليلة، ولم يكن يعرف الفرنسية لغة كانت أو آداباً ومذاهب فكرية وفلسفية وفنية، وكلّ ما أدركه العمراوي من معارف عن "الآخر"، إنما أدركه من خلال مشاهداته وتأويلاته لمشاهداته أولاً، ومن خلال أقاويل المترجم الذي كان يرافقه أثناء رحلته ثانياً، ومن خلال ما استقرّ في وعيه أو لا وعيه من انطباعات بعد قراءته لـ "تلخيص الإبريز" لرفاعة الطهطاوي[49]. وبهذا، فإنّ العمراوي يعبّر بشكل جليّ عن الجناح المتنور و"الحداثي" داخل المخزن المغربي، والذي كان حاملاً لمشروع تجديدي يستهدف إخراج بنيات المجتمع المغربي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من حالة الجمود والتخلف، إلى التطور والتجديد مواكبة للوتيرة الحداثية للمجتمعات الأوربية على جميع المستويات والأصعدة.

خلاصات تركيبية:

من خلال دراستنا لرحلتي الطاهر الفاسي وإدريس العمراوي، يمكن أن نخرج بمجموعة من الخلاصات تعبّر عن أهمّ الاستنتاجات التي تمّ التوصل إليها على مستوى السياق التاريخي لهاتين الرحلتين، ومضمونهما، وعملية المقارنة بينهما على مستوى الخطاب. وهذه الخلاصات، هي كالتالي:

- إنّ رحلتي الطاهر الفاسي وإدريس العمراوي جاءتا في سياق **"صدمة الحداثة"** التي واجهت المجتمع المغربي بعد هزيمتين شنيعتين في كلّ من إيسلي وتطوان، الشيء الذي يدفعنا إلى القول بأنه ليست كل الكتب السفارية المخزنية وصفت مظاهر الحداثة الأوربية، ومن ضمنها الحداثة العسكرية بدافع تعريف قرائها المحتملين بالغريب والعجيب من الظواهر والعادات وأنماط السلوك المخالفة لمجتمعهم، بل كان دافعهم الأساسي هو البحث فيما يرونه ويصفونه عن حلول لمشاكل الدولة المخزنية.[50]

- من خلال خطاب الرحلتين، يظهر أنّ الموقف من أوربا ومن حداثتها إشكالية، غذت الصراعات داخل النخبة المخزنية ذاتها، هذه النخبة التي انقسمت إلى مؤيد للانفتاح على النظم الأوربية الحديثة كأساس لتحديث المجتمع أو على الأقل كأساس لتحديث الدولة المخزنية[51]، ويمثل هذا الاتجاه إدريس العمراوي. وجناح

---

[48]- المرجع نفسه، ص 111

[49]- نفسه، ن.ص.

[50]- فريد لمريني: **صراع الحداثة والتقليد: معيقات التحول الليبرالي في المغرب**...، م.س، ص 64

[51]- عبد السلام الحيمر: **النخبة المغربية وإشكالية التحديث**...، م.س، ص145

ذو خلفية دينية تلمودية صرفة يوافق على الانفتاح على مظاهر الحداثة الأوربية لكنه يفسرها، ويؤولها انطلاقاً من نظرته الضيقة لها وتصوره للآخر المنحصر في اعتباره كافراً وينتمي لدار الكفر، وهذا الاتجاه يمثله بشكل متميز الطاهر الفاسي.

- يظهر ـ وبلا شك ـ أنّ التأخر الثقافي لكتّاب المخزن وللنخبة المغربية المخزنية آنئذ مسؤول بدوره عن سوء فهم الآخر والذات في علاقتهما المتبادلة، بل ومسؤول أيضاً ـ وبدرجة ما ـ عن عجز مخزن النصف الثاني من القرن التاسع عشر عن إنجاز **"ثورة تحديثية"** من فوق، كان من الممكن ـ لو حدثت فعلاً ـ أن تجنب المغرب السقوط في المصير الذي أصبح بعدئذ مصيره: الاستعمار أولاً واستمرار التأخر الشامل ثانياً.[52]

- يمكن القول إنّ خطاب الطاهر الفاسي في رحلته هو نفسه الخطاب الذي يعاد إنتاجه على امتداد الدول الإسلامية كرد فعل يائس على عدوان الغرب، ولا سيما بعد حرب الخليج الثانية، والتدخل العسكري الأمريكي في المنطقة العربية، الشيء الذي يدفعنا إلى طرح التساؤل التالي: من المسؤول عن إعادة إنتاج هذا الخطاب؟ هل نحن أم الآخر؟ ومهما يكن الجواب، فإنّ صورة الآخر الأكثر انتشاراً وشيوعاً وترددا في حاضر المغاربة وعموم العرب والمسلمين، هي مزيج مركب من صورة أوربا النصرانية اليهودية، وأوربا الرأسمالية الصناعية الديمقراطية، وأوربا الاستعمارية في آن واحد، وهذا في حد ذاته تناقض يعكس نظرتنا الضبابية للآخر.

[52]ـ عبد السلام الحيمر: **المغرب: الإسلام والحداثة**...، م.س، ص 155

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com